من التاريخ الإسلامي

هيلانة لويس

للأستاذ علي الطنطاوي

كل شيء ساكن سكون الموت ، مظلم ظلمة القبر ! ولقد أسدل الليل فروعه السود ، فغطى على المعركة اللافحة الأوار ، وأخفى هذه الساحة المفروشة بالجثث ، وهذه الأصلاد المصبغة بالدم ، وأرخى الستار على مشهد من أروع مشاهد المأساة التي يمثلها الإنسان أبداً على مسرح الوجود فيلبس فيها جلد الذئب وأظفار السبع وأنياب الثعبان . . . فسقط جنود المعسكرين صرعى الجهد والكلال ، وهجعوا كالقتلى لا يحسون ولا يحلمون ، وأمست خيامهم ومنازلهم جامدة لا حياة فيها كهذه الصخور الصمّ التي تحيط بها من كل جانب . . .

وتلك هي الحرب ، آفة الحياة ، وعار الإنسانية !

تلك هي الحرب : تنفجر الأذهان بالعلوم والمعارف ، وتتفرج الأيدي عن الصنائع والمصانع ، واللطائف والزخارف ، وينفق الوالدون النفس والنفيس لتنشئة الأولاد وتهذيبهم ، فإذا استكمل البنون القوة والقوة ، وأزهرت الفنون وتقدمت ، وارتفعت المصانع وسمت ، وأخذت الحياة زخرفها وازّينت ، جاءت الحرب فأودت بذلك كله ، فجعلته حصيداً كأن لم يغن بالأمس . . .

فياويل الحرب . . . ويل لها ما لم تكن دفاعاً عن شرف أو حياة أو دين !

* * *

كل شيء ساكن سكون الموت ، مظلم ظلمة القبر ، إلا خيمة في معسكر النصارى نائية ، ينبعث من شقوقها وفرجها ضوء خافت ، ويسمع من جوفها همس ضعيف ، لو أنت أصغيت إليه لسمعت صوت امرأة تتكلم بلسان الإفرنج تقول لصاحبة لها :

— ماذا يشجيك الليلة ياهيلانة ، وما الذي جدّد أحزانك ، وهاج آلامك ؟ أفزعت من هذه المعارك العابسة التي جئنا نخوضها ونصلى نارها دفاعاً عن (قبر . . .) المسيح ؟ أم هو الحزن على لويس قد خامر نفسك ؟ لا تحزني يا هيلانة فقد كان مقدراً عليه هذا المصير ؛ ولقد عرفه ومشى إليه مطمئناً راضياً ، فاصبري يا أختاه ، فإن لويس في السماء . ألا يسرّك أنه مات في سبيل النصرانية ؟ فلا تدعي اليأس يخالط نفسك القوية في هذه الساعة التي تحتاجين فيها إلى الصبر والجلد !

وسكتت المرأة وعاد السكون يغمر الدنيا . . . ومضت فترة طويلة لم يسمع خلالها نبأة ، ولكن النور الضعيف لبث منبعثاً من شقوق الخيمة . . . ثم ظهر القمر يطل على الدنيا بوجه شاحب كأنه وجه عليل مدنف ، أو ميت محتضر ، وأبدت أشعته الكليلة ما كان الليل قد ستره ، فبان من خلالها ذلك المشهد الموحش المرعب وقد زاده شحوبها وحشة وهولاً . . . فخرجت المرأة من الخيمة وجلست على مقربة منها تتأمل وتفكر ، وكانت في الثلاثين من عمرها ، ذات عينين زرقاوين واسعتين ، وشعر كستنائي اللون ، وبشرة بيضاء ناعمة ، وكانت جميلة جذابة ، ولكن في أنفها طولاً ينأى به عن الجمال . . .

كانت تنظر إلى تلك الخيام وقد انتثرت على السفوح والصخور ، وتمدّ البصر إلى جيش أعدائها المسلمين وقد احتل القلعات العالية ليحمي أسوار المدينة ويدرأ عنها ، وتفكر في هذه الحياة المروّعة التي تحياها ، فتمتلئ نفسها حسرة على حياتها الوادعة في ماضيات لياليها ، يوم كانت في قريتها المتوارية في حجر صخرة من صخور (الألب) لا تعرف إلا هذا العالم الصغير الذي يحدّه شرقاً منعطف الوادي ، ويحده من الغرب المضيق الصخري

الضيق ، ومن الشمال والجنوب غابة الصنوبر الفتانة وهي تحتضن القرية وتنبسط على السفح الجميل ، وذلك السور الصخري يطيف بذلك كله ويعانقه ويدفع عنه الأذى . لقد كانت ترى من يوغل في الوادي ، ويحتجب عن القرية في ملتفاته ومنعطفاته بطلاً من الأبطال ؛ أما هذه الجلاميد ، وهذه الذرى المشرفة على القرية ، فلم تفكر يوماً من الأيام في البحث عما وراءها ، ولم ترتق بفكرها إلى أعاليها لتفكر ماذا فيها ... فكيف طوّحت بها الأقدار فألقت بها في هذا العالم النائي الغريب الذي لم تكن تدري به أو تعلم له وجوداً ! وكيف كتبت عليها أن تفقد زوجها الحبيب ، وأن تعيش وسط الدعر والموت ؟

واشتد بها الضيق ، وزاد بها الحنين إلى ماضيها الهانئ ، وصور لها الوهم القرية فرأتها أمامها ، وشاهدت الغابة التي يقطعها فتيان القرية وفتياتها كل صباح ومساء ، ليبلغوا العين فيزدحموا عليها ليرتووا من مائها العذب النمير ، ويذهبوا ظمأ أجسامهم ، وليرتووا من العيون الأخرى فيطفئوا ظمأ نفوسهم إلى الحب ... فذكرت كيف عرفت فتاها الحبيب ، وقد رأته أول مرة على باب داره تلقاء الغابة ، فأحست كأن عينيه قد اخترقتا شغاف قلبها ... ورأته بعد ذلك في الغابة ولكنها لم تجرؤ أن تكاشفه بحبها ... وهل تجرؤ على مثل ذلك فتاة ؟ حتى كان ذلك اليوم السعيد الذي يمرّ في موكب حياتها بهيجاً مشرقاً ، على حين تمر أيامها الأخرى شاحبات غائمات ... فجلست معه تحت تلك الشجرة المتعزلة أحلى مجلس في حياتها ، إذ قد أعلن فيه مولد الحب بقبلة مسكرة لا تزال تحس طعمها في فيها ، وأثرها على شفتيها ...

لقد كانت سعيدة في هذه القرية ، تعيش في جنة الغرام ، لا تعرف إلا قلبها وربها ، فهي تصبح فتمشي إلى الكنيسة لأنها لم تعرف لله بيتاً خيراً منها ، فتتوجه فيها إلى الله بالصلاة التي حفظتها ... وتمشي فتطوف في الغابة يدها في يد الزوج الحبيب ، حتى تبلغ كنيسة حبها تحت الشجرة المقدسة ، فتؤدي فيها صلاة الحب على دين الغرام ، قبلة فيها (كما قال ابن أبي ربيعة) خمر وعسل !

كانت القرية كلها في أمن ودعة ، حتى نزل بها ذلك الرجل ، فنزل بها البلاء وهبطت المصائب ، وتعكرت حياتها الصافية كأنما هي بركة ساكنة ألقيت فيها صخرة من الجبل ... كانت القرية في ذلك الصباح مستلقية في فراش أمنها ترشف بقية أحلام الليل اللذة ، تنهض مع الشمس فتعمل على تحقيقها ، وكانت الغابة تصلي وقد شمرت أشجار الصنوبر للعبادة عن سوقها ، ووقفت بين يدي باريها صفوفاً للصلاة ، وقامت الطير تتلو صلواتها على منابر الأغصان ، ووقف الورد والزنبق في الحدائق خاشعاً مصغياً ، وسبّحت السواقي بحمد ربها فكان لتسبيحها وسوسة دائمة جميلة ، وأصاخ الجبلان وصمت الوادي ... فلم يفسد هذه الصلاة الخاشعة في معبد الطبيعة إلا صرخة تدوّي في الوادي ، يحملها صوت مبحوح ، كأنه صوت جريح ينضح صراخه بدمه ، فيسمع الصوت أحمر قانياً يقطر دماً . وتوالت الصيحات الحمر ، وازدادت شدة وهولاً ، فحملت الذعر إلى بيوت القرية وأرباضها وأوكارها وأبدلت بصباحها الباسم صباحاً كالح الوجه مربدّاً قبيحاً ، وذهب القوم يستقرون الصوت وينقصونه ، فرأوا قساً من القسوس مكشوف الرأس ، منفوش الشعر ، قد لبس المسوح ، وطفق يلقي عليهم باللاتينية تارة وبالفرنسية تارة أخرى ، ما يفهمون ومالا يفهمون ؛ وكان يمر في كلامه (الخطر الداهم) و (المسيح) ثم عرض عليهم صورة (القبر المقدس...) الذي ينزل عليه النور ، والذي يحجون إليه ويتبركون به ... وقد قام فارس من فرسان المسلمين ، فوطئه وأهانه وجعل الفرس يبول عليه[1] ... وكان يعرضها باكياً نادباً ناتفاً لحيته ، منذراً بفناء النصرانية وضياع الدين ، ويدعو إلى إنقاذ (القبر...) من أيدي (الكفرة المسلمين...) فذهب الهياج بالعقول ، وأطار الأفئدة ، وألفت الحماسة المنطق ، ونسي الناس كل شيء إلا هذه النار التي سرت في العروق ، ومشت إلى الدماغ فألهبته ، فنهضوا يتبعون الراهب إلى حيث لا يعلمون ، إلى إنقاذ (قبر المسيح ...) من أيدي (الكفرة المسلمين ...) الذين أهانوه وحقروه ! ...

وكانت هيلانة وزوجها من المؤمنين ، فلما قالوا لهما إن المسلمين أكلة لحم البشر ، وإنهم ذئاب الإنسانية ، وإنهم عدوا على المسيح .. نهضا يدفعهما الإيمان الذي عبث به القسوس ، واستغلوه وأوقعوا في أبناء آدم هذه الذبحة المروعة ، فأخذا الطفل الوليد وسارا مع الجموع — نحو بيت المقدس ...

(١) كذا جاء في التاريخ .

وعاودتها ذكرى زوجها الحبيب ، فانفجرت باكية ، فأيقظ صوتها صاحبتها فخرجت تراها ...

— مالك يا هيلين ؟ لماذا تبكين ؟ لم لم تنامى ؟

فلم تجب واستمرت تبكى ، فعادت ترفه عنها وتواسيها .

— ماذا عراك يا هيلانة ؟ أجيبى ، كلينى ، لا تقتلى نفسك بسكوتك .

— لويس !

وخرج اسمه زفرة متصعدة من أعماق القلب ، غارقة بالدمع ، وعادت تبكى .

— اصبرى يا أختاه . إنه فى السماء ، ثم إن عندك لويس الصغير ، ألا تسمعين كيف يبكى ؟ إنه ابنه يا هيلين ، ابن الحبيب ، فعيشى من أجله . أريه ألوان السرور والمرح ، تسعد روح لويس فى سمائها . هاك الطفل يا هيلانة ، ألا ترين أن بكاءك يؤلمه ؟

فأخذت هيلانة الطفل ، تضمه إلى صدرها ، وهى مغمضة العينين ، وتقبله فى عنقه الدافئ ، وتمرغ وجهها فى صدره . ثم تضع خدها على خده ، وهى تهمس باسم لويس ، كأنما تذكر فيه مولد الحب وقبلاته الأولى ...

— ٢ —

وهجمت هيلانة وصاحبتها ، وانطفأ هذا النور الكليل الذى كان ينبعث من الخيمة ، ومرت من الليل ساعات ...

وكان معسكر المسلمين صامتاً مظلماً لا يرى فى خلاله إلا النور الذى يسطع من خيمة السلطان ، وكان الجند ناعمين يستريحون من عناء النهار الماضى الذى خاضوا فيه حرباً من أشد ما عرفوا من الحروب ، وبذلوا جهد الجن حتى استطاعوا أن يشقوا الطريق إلى (عكا) المحصورة ، وكان المدد يتوالى على جيش العدو من البحر ، وكاد يجزع المسلمون عندما رأوا الأمداد ، ولكن منظر السلطان ثبتهم ، فقد كان ينظر إلى المراكب تحمل الصليبيين إلى البر ، فلا يثنيه مرآها ولا يدخل الروع إلى قلبه ، بل كان يراها مستبشراً متفائلاً مؤمناً بنصر الله . ولقد خبّر القاضى ابن شداد رفيق السلطان الجند وقص عليهم أن السلطان عدّ بنفسه من العصر إلى الليل سبعين مركباً نزلت إلى البر تنقل المدد والذخيرة فما ضعف ولا اضطرب ، ولا تغيّر اعتقاده بالله الذى يعتقد بأن النصر من عنده . وكان السلطان أشد القوم تعباً لأنه كان يباشر أمور الحرب بنفسه ، وينتقل خلال المعركة ، ويعرض روحه للمهالك ، ثم يبيت الليل ساهراً يدبر أمور المسلمين لا يبالى راحته ولا صحته فى سبيل إعلاء كلمة الله .

فى تلك الساعة كنت تلمح رجلين يتقدمان فى الظلام يريدان معسكر المسلمين ، وهما يخطوان بحذر ، ويقفزان على الصخور بخفة ونشاط ، وقد حمل أحدهما هنة صغيرة ملفوفة بخرقة بيضاء قد ضمها إلى صدره برفق ، وأحاط بها يسراه بعناية ، وأمسك بيمناه السيف مصلتاً خشية أن يفجأه كمين أو يعرض له عدوّ فى هذه الظلمة الحالكة ، وكانا صامتين . فلما جاوزا (البرك) ودخلا معسكر المسلمين وأمنا ، وضعا السيوف على الأرض وجلسا يستريحان وقد أبقى الأول حمله على ذراعه وأحاطه بطرف ثوبه مبالغة منه فى العناية به ، وقال لرفيقه :

— ماذا ترى السلطان قائلاً لنا ؟ أتراه راضياً عن عملنا وهو الذى أوصانا ألا نعرض للنساء والأطفال ، وألا نمس الأعزل بسوء ، وأن ندع القسوس ، ولم يسمح لنا إلا بسرقة المحاربين والجند ؟ أفلا تحسبه يكره ما أتينا هذه الليلة ويكون غضبه علينا أضعاف رضاه عنا يوم سرقنا ذلك القائد من فراشه ؟

فأطرق الثانى كأنما كان يفكر فى غضب السلطان ، ويبحث عن سبيل الخلاص من هذه الوهدة التى سقطا فيها ، ثم رفع رأسه فجأة وقد أشرق وجهه بنور الأمل وقال له :

— لماذا يغضب ؟ أليس الله قد أباح لنا أن نردّ العدوان بمثله ؟ أما بدأونا هم بمثل هذا أول مرة ، وروّعوا نساءنا وسرقوا أطفالنا فلما صبرنا عنهم وترفعنا عن مقابلتهم بمثل فعلهم ، ظنوا ذلك عجزاً منا فأوغلوا فى عدوانهم الآثم الذنيء ؟ أفندعهم يفعلون ما يريدون لا نعدّ إليهم يداً ؟

واطمأن الأول إلى هذه الحجة ، فقاما يسيران فى هذه البقاع التى كانت فيما مضى رياضاً زاهرة وتلالاً خضراء معشبة ، فجعلتها الحرب قفراً خالياً ، وقبراً واحداً مفتوحاً ، وألبستها ثوباً دامياً من أشلاء أبنائها ، حتى بلغا خيمة السلطان فوجداها مضيئة فعلما أنه لم ينم ، ووقفا ينتظران الإذن ليعرضا عليه ما جاءا به ، لأنه كان يطلع بنفسه على كل كبيرة وصغيرة ...

ومرت ساعة ومال ميزان الليل وهما واقفان ، فسمعا حركة ورأيا رسولاً يحاول أن يدخل على السلطان وهم يمنعونه حتى أنبأهم أنه يحمل رسالة خطرة مستعجلة لا يجوز تأخيرها ، فخبر السلطان فسمح له وقابله على خلوة لم يكن فيها إلا ابن شداد القاضي ثم خرج الرسول على عجل ، وخرج من بعده ابن شداد معلناً أن السلطان سينام قليلاً ، وكان ذلك في السحر ... فأيس الرجلان من لقائه وذهبا ينتظران الصباح

ولما كان الصباح ذهب أول الرجلين يلقى القاضي ابن شداد يسأله عن أمر السلطان، وكان صديقاً له ، فحدثه أن الرسول حمل إلى السلطان نبأ مروّعاً هو أن جيشاً من الصليبيين الألمان يزحف نحو الجنوب في عدد هائل ، فلم يستطع أحد من أمراء المسلمين في الشمال أن يرده أو يقف في وجهه فأصبح المسلمون بين نارين

تفكر السلطان في الأمر ، ثم جمع الملوك والقواد ولم يكن يقطع أمراً دون مشورتهم ، فهبوا من فرشهم ، وجفوا راحتهم في هذه الليلة العصيبة التي يلتمس الراحة في مثلها أشد الناس مراساً ، وأكثرهم صبراً ، فلما اجتمعوا عرض عليهم الأمر ، فبذلوا له طاعتهم ، ولكنهم تهيبوا الإقدام على هذين الجيشين ، واضطربوا لهذا الخطب الذي لم يتوقعه أحد منهم ، ولم يكن هؤلاء الملوك والقواد من الجبناء الرعاديد ، بل كانوا أبطال الحومة ، وسادة الجلاد ، ولم يفقدوا الإيمان الذي قابلوا به جيوش أهل الصليب كلها حين جاءت يحدوها التعصب الذميم ، ولا الشجاعة التي ردّوا بها هذه الجحافل الجرارة ، وقسموها قسمين ، قسم مصرّع على الثرى قد ذهب ضحية العدوان الآثم ، وقسم طائر على وجهه فزعاً لا يدري أين المحط ، فتصدّع الخميس العرمرم تحت ضرباتهم المسددة وهتافهم المظفر ، كما يتصدع القطيع من الغنم إذا سمع صوت الأسد وأحس أنيابه ... ولم ينسوا طعم النصر الذي ذاقوه، ولا النهاية الماجدة التي ختمت بها الوقائع الماضية التي خاضوا غمرتها ، ولكن لم يكن في تلك المعارك مثل هذا الخطب العابس الذي حمل نبأه الرسول ... ففاضت الحماسة من صدورهم وإن لم تنفد ، وسكنت قليلاً لتستجم وتنهض من جديد؛ أما نفس السلطان فلا تني ولا تلين ، وحماسة السلطان لا تبلغ منها خطوب الدنيا كلها ، وإنهم لمن العظماء ذوي النفوس الكبيرة ، ولكن أنى لهم بمثل نفس السلطان وخلاله البارعة وبطولته الفذة التي تحققت مرتين فقط في تاريخ البشر كله: في عمر بن الخطاب وصلاح الدين الأيوبي ، ولم تعرف في غيرهما إلا خيالاً يلوح ولا يظهر ، وإشارات تلمح ولا تبصر !

فلما رأى السلطان هيبتهم صرفهم . ولبث وحده مهموماً يفكر ...

قال الرجل : فماذا فعل السلطان كان الله له ؛ كم يحمل وحده من الأهوال التي تخرّ تحتها الجبال ، وتعجز عن حملها الأمم !

قال ابن شداد : جلس يدبر أمره ، ويرسم خطط القتال وهو مهموم قد أخذ منه التعب والنعاس ، وأنا أنظر إليه ليس معنا ثالث إلا الله ، فسألته أن ينام ساعة فيستريح ؛ فظن أني قد نعست فقال لي : (لعلك جاءك النوم .) ونهض ... فخرجت أمشي إلى خيمتي فلم أصل إليها وآخذ في بعض شأني حتى أذن الصبح . فعدت لأصلي معه على عادتي ، فوجدته يمر الماء على أطرافه فقال لي حين نظر إليّ : (ما أخذني النوم أصلاً) فقلت : قد علمت . قال : من أين ؟ قلت : لأني ما نمت وما بقي وقت للنوم

ثم اشتغلنا بالصلاة وجلسنا على ما كنا عليه ، وجعلت أفكر في أمره وما يحمل من الهمّ وما ورد عليه من الشدة وذكرت أن قتيبة بن مسلم وقع في إحدى الشدائد وهو يحارب الأتراك وضاق به الأمر ، وتكاثر عليه العدو ، وبذل كل ما يستطيع من القوة والمكيدة فلم يغن ذلك عنه شيئاً. فقال: أين محمد بن واسع؟ قالوا: هو في أقصى الميمنة جاثٍ على سية قوسه يومي بأصبعه نحو السماء. فتهلل وجه قتيبة واستبشر ووثق بالنصر ، وقال : والله لتلك الأصبع الفاردة أحب إليّ من مائة ألف سيف شهير وسنان طرير. فلما فتح الله عليهم قال له : ما كنت تصنع ؟ قال كنت آخذ لك بمجامع الطرق

وذكرت أن قواد المسلمين الذين دوخوا العالم ، وأخضعوا الممالك ، وملكوا الأرض ، لم يملكوها بقوتهم وعددهم وإنما ملكوها بإيمانهم والتجائهم إلى الله ، ورأيت السلطان قد وقف حياته على الجهاد في سبيل الله ، وباع نفسه من الله ، ولم يقصر في فريضة ولم يهمل نافلة ، بل كان ينزل حيثما أدركته الصلاة فيصلي ويسمع الحديث بين الصفين ، ولم يعرف عنه ميل إلى دنيا

أو حرص على لذة من لذائذ العيش . فأيقنت أن دعاءه لا يرد ، وأنه هو الولىّ إن عدّ الناس الأولياء، وهو التقى إن ذكر الأتقياء. فقلت له : قد وقع لى واقع وأظنه مفيداً إن شاء الله

قال : وما هو ؟ قلت : الإخلاد إلى الله ، والإنابة إليه ، والاعتماد فى كشف الغمة عليه

قال : وكيف نصنع ؟ قلت : اليوم الجمعة، يغتسل المولى ويصلى ويتصدق بصدقة خفية على يد من يثق به ويدعو الله وهو ساجد فيقول : « إلهى قد انقطعت أسبابى الأرضية فى نصرة دينك ، ولم يبق إلا الإخلاد إليك والاعتصام بحبلك والاعتماد على فضلك. أنت حسبى ونعم الوكيل »

وإن الله أكرم من أن يخيب من يلتجئ إليه !

— ٣ —

وقطع القاضى حديثه ونظر إلى تلك المرأة التى أقبلت تريد خيمة السلطان ، وهى سافرة تصيح بلسان الافرنج وتعول باكية تشير إشارات الفزع الروّع، فأقبل عليها يسألها ماخطبها ...

وكانت هيلانة بذاتها ، أفاقت فلم تجد طفلها فخرجت من الخيمة جاحظة العينين مجنونة تصيح باسم ولدها وهى تعدو على غير هدى، تسير فى كل سبيل تسأل كل من ترى عن ولدها هل رأى ولدها؟ أين ذهب ولدى ؟ ماذا أعمل ؟ ساعدونى . فتشوا لى عن ولدى . أين ذهب ؟ هل مات ؟ من أخذه ؟ أأكلته الذئاب ؟ هل تدخل الذئاب إلى المعسكر ؟ أم قد سرقه اللصوص ؟ آه أين أنت يا ولدى؟ ألا تردونه علىّ ؟ ارحمونى يا ناس . فتشوا لى عن ولدى ...

وانطلقت تعدو فى أرجاء المعسكر ، حتى بلغت خيمة القواد فاقتحمتها ، وهبطت على أقدامهم تولول وتصيح ... فأخذتهم الشفقة بها ولكنهم كانوا عاجزين عن معونتها. فصمتوا ، وبالغت فى البكاء والتوسل ، فرأى قائد منهم أن يبعث بها إلى صلاح الدين

— إن الرجل شهم وشريف ، وفارس نبيل ، وما نحسبه يسد أذنيه دون شكوى امرأة مفجوعة تسقط على قدميه باكية ذليلة ترجوه أن يردّ عليها ولدها الوحيد ... وهو الذى قبض بالأمس على قائد الحملة الفرنسية ، فلما صار بين يديه وانتظر القتل لم ير منه إلا الإكرام والإحسان ، خلع عليه وقدّمه ورفع مجلسه وسيّره إلى دمشق معزّزاً مكرّماً ، فلم يستطع القائد أن يرفع بصره إليه لعجزه عن شكره ، ولخجله من نفسه حين قابل بين صنيع السلطان به ، وصنيعه هو بمن أسرهم من قواد السلطان ...

ووافق القواد على ما وصف به صلاح الدين من النبل والشرف والإنسانية، فسيروا المرأة إليه، فانطلقت تعدو حتى تقطعت أنفاسها وهى تتحامل على نفسها وتعود إلى السعى تريد أن تقطع الطريق كله بوثبة واحدة ترى من بعدها ابنها ، أو يكون فيها حتفها ، وتخشى أن تتأخر لحظة فيصيب ابنها شر ... يا رحمة الله على الأمهات ! وكانت نفسها كالبحر الغضبان لا تستقر فيه موجة حتى يموج موجة أخرى ... وكانت الصور تتردّد على نفسها متعاقبة يأخذ بعضها بأعقاب بعض ، فبينما هى تتصوّر فرحها بلقاء الطفل فتتقدم مسرعة ، إذا بها تفكر فى هلاكه فتقف لحظة كأنما لطم وجهها القدر بكفه ، ولكنها تطرد هذه الصورة من نفسها ولا تطمئن إليها، ويعاودها الأمل قويّاً منيراً، ويخالط الأمل خوف وإشفاق ، ثم تمرّ عليها صور من حياتها الأولى تجوز آفاق نفسها بسرعة البرق فتهزها هزّاً عنيفاً ثم تمضى إلى غايتها وترجع صورة الولد فتحتل خيالها كله ...

حتى بلغت (اليزك) فصاحوا بها : قفى . فوقفت تنظر ماذا يريدون ... ولم تكن تدرى ما (اليزك) وما الحروب ، وما جاء بها إلا إيمانها الذى استغله دعاة الشر وسخروها من أجله لمنافعهم فحرموها زوجها وطفلها وجرعوها كما جرعوا الآلاف المؤلفة من البشر غصص الآلام !

وجعلت تصرخ. فيهم صراخ اللبوة التى فقدت أشبالها ، وتخاطبهم بالفرنسية:

— ابنى ، ابنى أيها الجند ؟ ردّوه علىّ ، أريد ابنى ، فلماذا تمسكونه ؟ لماذا تعذبون امرأة مسكينة ؟ أين هو ؟ هل قتلتموه ؟ لا ، لا أرى على وجوهكم سمات الوحشية . إنى ألمح الشفقة على هذه الوجوه ، فلماذا لا تردون علىّ ابنى ؟

فلا يفهمون منها شيئاً ، فتعود إلى صراخها حتى جاء رجل منهم يعرف لسانها فسألها :

— ومن هو ابنك أيتها المرأة ؟

— ابنى لويس. لويس. أنا هيلانة. ردّوه علىّ. أريد أن أقابل السلطان.

فأخذته الرحمة فتركهما تمر ودلها على الطريق إلى خيمة السلطان فذهبت تعدو

* * *

قال لها القاضي :

— ولكن السلطان الآن في شغل . يجب أن تنتظري ساعة

— لا . لا . أتوسل إليك ، أخاف أن يصيب ابني سوء ، فدعني أذهب إليه

فقال لها القاضي : اذهبي مع هذا الرجل . وأمره أن يدعها ساعة في خيمة الأسرى حتى يستأذن لها على السلطان ، وينبئه نبأها . وظنت أنها في طريقها إلى السلطان ، فسارت صامتة مسرعة ، فلما دخلوا بها الخيمة ورأت الأسرى ، عادت تصيح وتولول ، فنبّه صياحها الأسرى ، واستفاض حتى بلغ خيمة السلطان فبعث يطلبها . . . وكان في أقصى الخيمة أسير اضطرب لما رآها ووجف قلبه ، ولبث بصره عالقاً بها حتى خرجت من حيث جاءت ، فلبث مفكراً مشدوهاً ، تطفو على وجهه خيالات أفكار هائلة وذكريات بعيدة ، ثم تراخى رأسه فأسنده بكفيه ، وظل ساكناً تنطوي جوانحه على البركان ... الذي انفجر بعد دقائق ، فنهض الأسير يصرخ صراخ الوحش الكليم : أريد أن أراها ، أريد أن أراها . . .

وراع صياحه الأسرى وهم يعهدونه وديعاً كالحمل ، فأقبلوا يسألونه ، فلا يأبه لهم ولا يكلمهم ، وأسرع إليه الحراس يكلمونه فلا يجيب إلا بهذا الصراخ ، فرفعوا أمره إلى السلطان وأدخلوه عليه . . . فلما احتواه مجلس السلطان طأطأ رأسه ووقف خاضعاً ، وكانت عظمة السلطان تملأ نفسه إكباراً له ، وكان يحس فيها الشكر الخالص لما رأى من إكرام السلطان في هذه المدة الطويلة التي قضاها أسيراً عنده ، ثم رفع رأسه وجعل يقلب نظره في أرجاء المجلس فوقع على هيلانة وهي واضية مطمئنة وابنها في حجرها ، وهي تنظر إلى السلطان نظرة شكر وحبّ ، ثم رآها تنهض فجأة فتجثو بين يديه فتقبل قدميه وتتقاطر دموعها ، فيتململ السلطان وينهضها . . . فلم يعد يتمالك نفسه ، فأسرع نحوها على غير شعور منه ، فلما رآه الطفل هتف به : بابا . . . ووقع بين ذراعيه . . . ونظرت المرأة مبهوتة لا تكاد تصدق ما ترى ، وجعلت تنظر حولها لتتثبت مما ترى ، ولتعلم هل هي في يقظة أو في حلم ، ثم صاحت : لويس ! أنت حيّ ؟

وفهم السلطان القصة فحول وجهه حياء وتركهما يتعانقان...

* * *

ولما تلفت السلطان وجدها جاثيين بين يديه يحاولان شكره ، فلا تجاوز الكلمات شفاهها إلا وهي جمجمات غامضة ، فقال لها :

— إنّا لم نفعل إلا ما يأمرنا به ديننا ؟

قالت المرأة :

— أدينك يأمرك بهذا ؟

— قال : نعم ، فإن الإسلام رحمة للعالمين ، للانسانية كلها .

قالت : أفتضيق هذه الرحمة عن امرأة مسكينة ... تحب أن تسعد وتحيا بسلام ، في ظلال الإسلام ؟

فتهلل وجه السلطان ، وقال لها : إن رحمة الله وسعت كل شيء

قالت : كيف أغدو مسلمة ؟

قال : تشهدين أن الله واحد ، وأن محمداً رسول . لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

فنطقت بها ، وتلفتت إلى زوجها فوجدته ينطق بالشهادة .

* * *

وخرج ويده في يدها يذكران الماضي الحلو ، والقرية الهادئة .

— لقد تركنا البنفسج ياهيلانة مخضراً يانعاً ، فهل أزهر من بعدنا البنفسج فتضوّع أريجه في جوانب الحديقة ؟ وشجرة التفاح هل تدلت ثمارها ، وارتخت أغصانها ؟ والعين هل بقيت على صفائها ... أواه ياهيلانة ! هل لنا من رجعة إلى ذلك الوادي السعيد وتلك الغابة التي ولد حبنا في جناتها ونما واكتمل ؟

— لا ياليوس، إنا لن نعود . إن يكن حبنا قد ولد في تلك الغابة ، فإنه قد بعث هنا بعد ما مات . هنا عدت إلى ، وهنا عرفت الله ، وهنا رأيت النبل والطهر والإنسانية ، فلنبق هنا ياليوس ... أليست هذه هي الأرض التي ولد فيها المسيح ؟ إننا لم نخسر المسيح ، ولكننا ربحنا معه محمداً !

* * *

وتقدم الجيش بعد ساعة ، يمشي إلى الظفر مكبّراً مهللاً ، وكان لويس في طليعة الجيش !

« دمشق »

علي الطنطاوي